

البَابُ الثَّانِي

الروح . . . والنفس . . . والعقل

هل الروح والنفس شيء واحد أو شيان ؟

اختلف الناس في ذلك .

- فمن قائل : إن مسمّاهما واحد . . . وهو الجمهور .

- ومن قائل : إنهما متغايران .

ونحن^(١) نكشف سر المسألة بعون الله وحوله وقوته :

- فنقول : النفس تطلق على أمور :

أحدها : الروح

قال الجوهري : النفس . . . الروح . . . يقال خرجت نفسه والنفس . . .

الدم . . . يقال سالت نفسه

(١) ابن قيم الجوزية .

obeykandl.com

الروح غير النفس

وفي الحديث :

الأول : « ما لانفس له سائلة لا ينجس الماء إذا مات فيه » .

الثاني : والنفس الجسد . . قال الشاعر :

نبئت أن أبا تميم أدخلوا أبناءهم تامور^(٢) نفس المنذر

الثالث : والنفس العين . . أصابت فلاناً أى عين . .

قلت^(٣) : ليس كما قال بل النفس هاهنا الروح ونسبة الإضافة إلى العين

توسع ، لأنها تكون بواسطة النظر المصيب ، والذي أصابه إنما هو نفس العائن كما تقدم .

الرابع : قلت : والنفس في القرآن تطلق على الذات بحملتها كقوله تعالى :

(فسلموا على أنفسكم) وقوله تعالى : (يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها)

وقوله تعالى : (كل نفس بما كسبت رهينة) وتطلق على الروح وحدها كقوله

تعالى : (يأتيتها النفس المطمئنة . ارجعي إلى ربك راضية مرضية .) وقوله

تعالى (ونهى النفس عن الهوى) وقوله تعالى : (إن النفس لأمارة بالسوء) .

وأما الروح فلا تطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس وتطلق الروح على

القرآن الذي أوحاه الله تعالى إلى رسوله . قال تعالى : (وكذلك أوحينا إليك

روحاً من أمرنا) .

(٢) التامور : الدم .

(٣) ابن القيم .

وعلى الوحي الذى يوحىه إلى أنبيائه ورسله . قال تعالى : (يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون .) وسمى ذلك روحاً لما يحصل به من الحياة النافعة فإن الحياة بدونها لاتنفع صاحبها البتة ، بل حياة الحيوان البهيم خير منها وأسلم عاقبة .

وسميت الروح روحاً لأن بها حياة البدن وكذلك سميت الريح لما يحصل بها من الحياة ، وهى من ذوات الواو ، ولهذا تجمع على أرواح قال الشاعر :
إذا ذهبت الأرواح من نحو أرضكم وجدت لمسراها على كبدى برداً

ومنها الروح والريحان والاستراحة . فسميت النفس روحاً لحصول الحياة بها . .

الخامس : وسميت نفساً : إما من الشيء النفسى لنفاستها وشرفها ، وإما من تنفس الشيء إذا خرج . . فلكثرة خروجها ودخولها فى البدن سميت نفساً ، ومنه النفس بالتحريك ، فإن العبد كلما نام خرجت منه ، فإذا استيقظ رجعت إليه ، فإذا مات خرجت خروجاً كلياً ، فإذا دفن عادت إليه فإذا سئل خرجت ، فإذا بعث رجعت إليه .

فالفرق بين النفس والروح فرق بالصفات لافرق بالذات ، وإنما سمي الدم نفساً لأن خروجه الذى يكون معه الموت يلزم خروج النفس ، وأن الحياة لاتتم إلا به كما لاتتم إلا بالنفس فلهذا قال :

تسيل على حد الظبابة نفوسنا وليست على غير الظبابة تسيل

ويقال فاضت نفسه وخرجت نفسه وفارقت نفسه ، كما يقال خرجت روحه وفارقت . . ولكن الفيض : الاندفاع وهلة واحدة . ومنه الإفاضة وهى

الاندفاع بكثرة وسرعة . . ولكن أفاض إذا دفع باختياره وإرادته ، وفاض إذا اندفع قسراً وقهراً ، فالله سبحانه هو الذى يفيضها عند الموت فتفيض هي .

ولكن فرقة أخرى من أهل الحديث والفقهاء والتصوف قالت : إن الروح غير النفس (٤) .

ومما يتصل بمعنى الروح وحقيقته أن تعرف هل هي النفس أو غيرها ، وقد كثرت في ذلك الأقوال واضطربت المذاهب فتعلق قوم بظواهر من الأحاديث لا توجب القطع لأنها نقل آحاد ، وأيضاً فإن ألفاظها محتملة للتأويل ومجازات العرف واتساعاتها في الكلام كثيرة ، فما تعلقوا به في أن الروح هي النفس قول بلال أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك مع قول النبي ﷺ وأن الله قبض أرواحنا ، وقوله عز وجل : (الله يتوفى الأنفس) والمقبوضة هي الأرواح ، ولم يفرقوا بين القبض والتوفى ، ولا بين الأخذ في قول بلال أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك وبين قول النبي ﷺ قبض أرواحنا وتنقيح الأقوال وترجيحها يطول ، وقد روى أبو عمر في التمهيد حديثاً يدل على خلاف مذهبه في النفس هي الروح ، لكن علله فيه أنه خلق آدم وجعل فيه نفساً وروحاً فن الروح عفافه وفهمه وحلمه وسخاؤه ووفاءه ، ومن النفس شهوته وطيشه وسفهه وغضبه ونحو هذا ، وهذا الحديث معناه صحيح إذا تَوَمَّل صح نقله أو لم يصح ، وسبيلك أن تنظر في كتاب الله أولى لا إلى الأحاديث التى تنقل مرة على اللفظ ومرة على المعنى وتختلف فيها ألفاظ المحدثين ، فنقول قال الله تعالى : (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي) ولم يقل من نفسى ، وكذلك قال : (ثم سواه ونفخ فيه من روحه) ولم يقل من نفسه ، ولا يجوز أيضاً أن يقال هذا ولاخفاء فيما بينهما من

(٤) الروص الألف شرح السيرة النبوية لابن هشام . ح ١ . فصل ومما يتصل بمعنى الروح

الفرق في الكلام ، وذلك يدل على أن بينهما فرقاً في المعنى ويعكس قوله تعالى :
(تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك) ولم يقل تعلم ما في روعي ولا أعلم ما في
روحك ، ولا يحسن هذا القول أيضاً أن يقوله غير عيسى ولو كانت النفس
والروح اسمين لمعنى واحد كالليث والأسد لصح وقوع كل واحد منها مكان
صاحبه ، وكذلك قوله تعالى : (يقولون في أنفسهم) ولا يحسن في الكلام
يقولون في أرواحهم ، وقال تعالى : (أن تقول نفس) ولم يقل أن تقول روح
ولا يقوله أعرابي فأين إذاً كون النفس والروح بمعنى واحد لولا الغفلة عن تدبر
كلام الله تعالى ، ولكن بقيت دقيقة يعرف منها السر والحقيقة ولا يكون بين
القولين اختلاف متباين إن شاء الله فنقول وبالله التوفيق : الروح مشتق من
الريح ، وهو جسم هوائي لطيف به تكون حياة الجسد عادة ، أجراها الله تعالى
لأن العقل يوجب ألا يكون للجسم حياة حتى يتفخ فيه ذلك الروح الذي هو في
تجاويف الجسد ، كما قال ابن فورك وأبو المعالي وأبو بكر المرادي وسبقهم إلى نحو
منه أبو الحسن الأشعري ، ومعنى كلامهم واحد أو متقارب .

وقد يعبر بالنفس عن جملة الإنسان روحه وجسده فنقول عندي ثلاثة
أنفس ، ولانقول عندي ثلاثة أرواح . لا يعبر بالروح إلا عن المعنى المتقدم
ذكره ، وإنما اتسع في النفس وعبر بها عن الجملة لغلبة أوصاف الجسد على
الروح حتى صار يسمى نفساً ، وطراً هذا الاسم بسبب الجسد كما يطرأ على الماء
في الشجر أسماء على حسب اختلاف أنواع الشجر من حلو وحامض ومر وحريف
وغير ذلك ، فنحصل من مضمون ما ذكرنا ألا يقال في النفس هي الروح على
الإطلاق ، حتى تقيد بما تقدم ولا يقال في الروح هو النفس إلا كما يقال في المني
هو الإنسان ، أو كما يقال للماء المغذي للكرمة هو الخمر والمخل ، على معنى أنه
ستضاف إليه أوصاف يسمى بها خمراً أو نخلاً فتقيد الألفاظ هو معنى الكلام

وتتزيل كل لفظ في موضعه هو معنى البلاغة فافهمه هداك الله .

قال مقاتل بن سليمان : للإنسان حياة وروح ونفس ، فإذا نام خرجت نفسه التي يعقل بها الأشياء ولم تفارق الجسد ، بل تخرج كحبل ممتد له شعاع فيرى الرؤيا بالنفس التي خرجت منه وتبقى الحياة والروح في الجسد فيه يتقلب ويتنفس ، فإذا حرك رجعت إليه أسرع من طرفة عين ، فإذا أراد الله عز وجل أن يميته في المنام أمسك تلك النفس التي خرجت . وقال أيضاً : إذا خرجت نفسه فصعدت إلى فوق فإذا رأت الرؤيا رجعت فأخبرت الروح وينبئ الروح فيصبح يعلم أنه قد رأى كيت وكيت .

قال أبو عبد الله بن منده : ثم اختلفوا في معرفة الروح والنفس .

فقال بعضهم :

- النفس طينية والروح نورية روحانية .
- الروح لاهوتية والنفس ناسوتية وأن الخلق بها ابتلى .
- وقالت طائفة (وهم أهل الأثر) : الروح غير النفس . . . والنفس غير الروح . . . وقوام النفس بالروح والنفس صورة العبد والهوى والشهوة والبلاء معجون فيها . . . ولا عدو أعدى لابن آدم من نفسه فالنفس لا تريد إلا الدنيا ولا تحب إلا إياها . . . والروح تدعو إلى الآخرة وتؤثرها وجعل الهوى تبعاً للنفس والشيطان تبع النفس والهوى . . . والملك مع العقل والروح . . . والله تعالى يمدحها بإلهامه وتوفيقه .

- وقال بعضهم : الأرواح من أمر الله أخفى حقيقتها وعلمها على الخلق .

- وقال بعضهم : الأرواح نور من نور الله وحياة من حياة الله .

* * *

النفس ماهى ؟

يقول الدكتور أحمد فؤاد الأهواني فى تحقيق مخطوط « أحوال النفس للشيخ الرئيس ابن سينا » : لا يخلو فيلسوف من كلام فى النفس الإنسانية . . لأنها أقرب الأشياء إلينا . . وهى إلى ذلك القرب شديدة الغموض . وكلما خيل إلى المفكرين أنهم قد ازدادوا بها علماً وبلغوا حقيقة أمرها وكشفوا سرها وعرفوا جوهرها . . إذا بهم يجدون ذلك العلم سراباً والجوهر مظهراً خلاباً ولا تنال إلى اليوم حيث كان سقراط وأفلاطون وأرسطو . . بل أشد عن الحقيقة بعداً ، ولذلك ضرب العلم الحديث صفحاً عن طلبها واكتفى بتحليل الظواهر النفسية وترك للفلاسفة ميدان الجوهر يسلكون إليه السبيل عسى أن يصلوا يوماً ما إلى معرفة حقيقة النفس .

وقد طلب ابن سينا معرفة النفس منذ صدر شبابه « لأن من عرف نفسه فقد عرف ربه » كما حدثنا فى رسالة القوى^(٥) النفسية التى ألفها للأمير نوح بن منصور فكانت أول مؤلفاته .

وإذا كان الشيخ الرئيس ابن سينا قد استهل حياته برسالة فى النفس فقد اختتمتها أيضاً بعد أربعين سنة من تأليف ذلك الكتاب برسالة صغيرة فى النفس الإنسانية . .

والدليل على أهمية كتاب النفس السيئوى وعلى أثره العظيم فى العصر الوسيط

(٥) هدية الرئيس للأمير - مطبعة المعارف ص ١٦ . سنة ١٣٢٥ هـ .

أنه نقل إلى اللاتينية فانتشر بين فلاسفة أوروبا انتشاراً كبيراً ، تشهد بذلك المخطوطات الباقية منه في مكتبات أوروبا حتى الآن وتبلغ عدتها خمسة وأربعين ، وخضع الفكر الأوربي لأثره منذ القرن الثاني عشر حتى القرن السابع عشر حين ظهر ديكارت وأخذ عن ابن سينا برهانه في إثبات وجود النفس .

أما أثر علم النفس السينوى في الفلاسفة الإسلاميين فلا يحتاج إلى دليل ، فقد أقر له المتأخرون بالرياسة وسموه الشيخ الرئيس واحتذوا مثاله في معظم أبواب علم النفس ، ولابن سينا كتاب (الشفاء) وهو الذى اختصره في كتاب (النجاة) وضمنه جملة آرائه ؟ ثم ربط ونسق الأجزاء المتفرقة عن النفس فيه في هذا الكتاب الذى عرضناه له وهو (أحوال النفس)

ونعود بعد هذه المقدمة التى استوقفتنا قليلاً . . إلى تعريف النفس ماهى ؟ يأخذ ابن سينا تعريف أرسطو للنفس كما هو . . وهو تعريف مشهور يقول فيه : (النفس كمال أول لجسم طبيعى آلى ذى حياة بالقوة) : غير أن ابن سينا يسلك إلى هذا التعريف مسلكاً جديداً فهو ينظر إلى الأجسام الطبيعية ويقسمها من جهة القوى الفعالة فيها إلى قسمين :

- قوى تعمل فى الأجسام بالتسخير .

- وأخرى تفعل بالقصد والاختيار .

فالتطبيعة والنفس النباتية اسم للقوى الفاعلة على سبيل التسخير^(٦) .
والنفس الحيوانية والإنسانية اسم للقوى الفاعلة على سبيل القصد والاختيار .

وقد يقال عن النفس إنها قوة أو صورة أو كمال .. فهى قوة بالنسبة

(٦) أحوال النفس (رسائله فى النفس وبقائها ومعادها) ابن سينا - تحقيق د / أحمد فؤاد

الأهوانى ص ٢٦ .

لفعلها .. وصورة بالقياس إلى المادة إن كانت ممتزجة بالمادة .. وكما بالقياس إلى النوع الحيواني والإنساني .. » والكمال الأول عند ابن سينا يقصد به غير ما يقصد أرسطو .

وابن سينا يميز بين العقل والنفس .. فالنفس تقال عند وجودها فعالة في جسم من الأجسام ، أما إذا فارقت فالأشبه أن تسمى العقل .. ومهما يكن من شيء فإن الصلة بين النفس والعقل صلة دقيقة غامضة .. وقد نجد اضطراباً عند ابن سينا نفسه حين يجعل العقل قوة من قوى النفس وحين يحدثنا في مكان آخر أن العقل فاض عن الأول .. ثم قاضت عنه النفس .. فكأنه يذهب مذهب أفلاطون حين يقدم العقل على النفس .

ولكن الأرجح في مذهب ابن سينا هو أن العقل قوة من قوى النفس ، وأن النفس عند مفارقتها البدن قد تسمى نفساً ، ولكن الأصح أن يقال عنها العقل . والقوى النفسانية هي القوى ذاتها التي ذهب إليها أرسطو من قبل وهي ثلاث : (النباتية - الحيوانية - الإنسانية) .

وظائف النباتية : التغذية والنمو والتوليد (على تفصيل)^(٧) .

وظائف الحيوانية : إدراك الجزئيات والتحرك بالإرادة (على تفصيل)

وظائف الإنسانية : تدرك الكليات وتعمل الأفاعيل بالاختيار الفكري

والاستنباط بالرأى .

ويستطرد ابن سينا في تفصيلات ذلك ويطنب في وصف القوى المدركة

ويقف طويلاً عند القوى الباطنة ، ثم يقسم النفس الناطقة إلى قسمين (عالمة

وعاملة) ولنا نريد تتبعه في كل هذه التفصيلات ، ولكن يهمننا هنا أن نذكر

ما جاء في (رسالته في معرفة النفس الناطقة وأحوالها) التي نشرها الدكتور/ محمد

(٧) رسالة في النفس الناطقة - ابن سينا - نشرها ثابت القدي .

ثابت الفندى بمطبعة الاعتماد الطبعة الثانية والتي ذكر فيها أنه رجع إلى ثلاثة نسخ خطية اثنتان منها عن مكتبة طلعت والثالثة عن برلين . . وهو حين يتكلم فيها . . في إثبات أن جوهر النفس مغاير لجوهر البدن يقول : (المراد بالنفس ما يشير إليه كل أحد فينا بقوله (أنا) وقد اختلف أهل العلم في أن المشار إليه بهذا اللفظ هو البدن المشاهد المحسوس أو غيره . . أما الأول فقد ظن أكثر الناس وكثير من المتكلمين أن الإنسان هو هذا البدن ، وكل أحد إنما يشير إلى نفسه بقوله (أنا) فهذا ظن فاسد في رأى ابن سينا ، والقائلون بأنه غير هذا البدن ، المحسوس اختلفوا : فمنهم من قال إنه غير جسم ولا جسماني بل هو جوهر روحاني فاض على هذا القلب وأحياء ، واتخذة آلة في اكتساب المعارف والعلوم حتى يستكمل جوهره بها ، ويصير عارفاً بربه عالماً بحقائق معلوماته فيستعد بذلك للرجوع إلى حضرة ويصير ملكاً من ملائكته في سعادة لانهاية لها - وهذا هو مذهب الحكماء الإلهيين والعلماء الريانيين - ووافقهم في ذلك جماعة من أرباب الرياضة وأصحاب المكاشفة فإنهم شاهدوا جواهر أنفسهم عند انسلاخهم عن أبدانهم واتصالهم بالأنوار الإلهية ويسوق ابن سينا البراهين من حيث البحث والنظر للتدليل على صحة هذا المذهب :

وفى رسالة ابن سينا فى الكلام على النفس الناطقة يقول (٨)

« الحمد لله . . اعلم أن الإنسان محتص بين الحيوانات بقوة درّاسة للمعقولات تسمى تارة نفساً ، وتارة نفساً مطمئنة ، وتارة نفساً قدسية وتارة روحاً روحانية ، وتارة روحاً أمرياً ، وتارة كلمة طيبة ، وتارة كلمة جامعة فاصلة ، وتارة سرّاً إلهياً ، وتارة نوراً مدبراً ، وتارة قلباً حقيقياً ، وتارة لباً ، وتارة نهىً ، وتارة حجاً ، وهو موجود لكل واحد من الناس . . »

ثم يقول : وهذه النفس الناطقة جوهر قائم بذاته . . غير منطبع فى بدن الإنسان ولا فى غيره من الأجسام ، بل هو مفارق للمواد والأجسام مجرد عنها وله علاقة ما يبدن الإنسان مادام حياً ، وليست تلك العلاقة كتعلق الشئ بمحله . . بل كتعلق مستعمل الآلة بالآلة . . وهو حادث مع البدن لاقبله ، وليس يفسد بفساد البدن وموته ، بل يبقى كما كان إلا أنه (تحصل له حالة تسمى عندما) تنقطع علاقته عن البدن - أى بعد انقطاع العلاقة بالموت . . سعادة ولذة أو شقاء وألماً . .

العقل

إن أول ما خلق الله تعالى جوهر روحانى هو نور محض قائم لافى جسم ولا فى مادة ، درّاك لذاته ولخالقه تعالى ، هو عقل محض ، وقد اتفق على صحة هذا

(٨) هذه الرسالة عن النسخة الوحيدة الموجودة بمكتبة ليدن رقم ١٤٦٨ وقد صورها المعهد الفرنسى بالقاهرة - عن كتاب رسالة النفس لابن سينا - د/ أحمد فؤاد الأهوانى .

جميع الحكماء الإلهيين والأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه كما قال ﷺ :
(أول ما خلق الله تعالى العقل ، ثم قال له : « أقبل فأقبل ثم قال له : أدبر
فأدبر » ثم قال : « فبعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أعز منك فبك أعطى . . وبك
أخذ . . وبك أثيب . . وبك أعاقب ») .

فنقول هذا العقل له ثلاث تعقلات :

أحدها : أنه يعقل خالقه تعالى .

الثاني : أنه يعقل ذاتا واجبة بالأول تعالى (الله سبحانه وتعالى) .

الثالث : أنه يعقل كونه ممكناً لذاته .

- فحصل من تعقله خالقه عقل هو أيضاً جوهر عقل آخر كحصول السراج
من سراج آخر .

- وحصل من تعقله ذاته واجبة بالأول نفس هي أيضاً جوهر روحاني
كالعقل ، إلا أنه في الترتيب دونه .

- وحصل من تعقله ذاته ممكنة لذاته جوهر جسماني هو الفلك الأقصى وهو
العرش بلسان الشرع فتعلقت تلك النفس بذلك الجسم . فتلك النفس هي
النفس الكلية المحركة للفلك الأقصى (العرش) كما تحرك نفسنا جسمنا .

النفس عند ابن قيم الجوزية^(٩) . . وغيره

أما ابن القيم فحين يعرض لتعريف النفس فإنه يقول :
ما حقيقة النفس ؟ هل هي جزء من أجزاء البدن أو عرض من أعراضه أو

(٩) اشتهر (ناس القيم) بين الكتاب وهذه نقول عن كتابه (الروح) .

جسم سابق له مودع فيه أو جوهر مجرد ؟ وهل هي الروح أو غيرها ؟ وهل اللوامة والأمانة والمطمئنة نفس واحدة لها هذه الصفات أو هي ثلاث أنفس ؟

والجواب : أن هذه المسائل قد تكلم الناس فيها من سائر الطوائف واضطربت فيها أقوالهم وكثر خطوهم ثم هدى الله أتباع الرسول وأهل سنته لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

يقول أبو الحسن الأشعري في مقالاته : قال النظام : الروح هي جسم وهي النفس ، وزعم أن الروح حي بنفسه ، وأنكر أن تكون الحياة والقوة معنى غير الحى القوى . . وقال آخرون : الروح عرض .

وقال جعفر بن حرب : (لاندري الروح جوهر أو عرض) . . (يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) .

وذهب اليالى : إلى أن الروح جسم وأنها غير الحياة والحياة عرض . .
وقال قائلون : ليس الروح شيئاً أكثر من اعتدال الطبائع الأربع (الحرارة ، والبرودة ، والرطوبة ، واليبوسة)

- الروح معنى خامس غير الطبائع الأربع .

- الروح الدم الصافي الخالص من الكدر والعفونات ، وكذلك قالوا في القوة .

- الحياة هي الحرارة الغريزية . . وكل هؤلاء الذين ذكرنا أقوالهم من أصحاب الطبائع يثبتون أن الحياة هي الروح .

وكان الأصم : لا يثبت للحياة والروح شيئاً غير الجسد ، ويقول ليس أعقل إلا الجسد الطويل العريض الذى أشاهده . . وكان يقول : النفس هي هذا البدن بعينه لا غيره . .

وذكر عن أرسططاليس : إن النفس معنى مرتفع عن الوقوع تحت (التدبير ، والنشوء ، والبلى » وأنها جوهر بسيط منبث في العالم كله من الحيوان على جهة الإعمال له والتدبير ، وأنه لا تجوز له صفة قلة ولا كثرة قال وهي على ما وصفت من انبساطها في هذا العالم غير منقسمة الذات والبنية وأنها في كل حيوان العالم بمعنى واحد لا غير .

وقال آخرون : بل النفس معنى موجود ذات حدود وأركان وطول وعرض وعمق ، وأنها غير مفارقة في هذا العالم لغيرها مما يجري عليه حكم الطول والعرض والعمق ، وكل واحد منها يجمعها صفة الحد والنهاية .

وقالت طائفة : إن النفس موصوفة بما وصفها هؤلاء الذين قدمنا ذكرهم ، إلا أنها غير مفارقة لغيرها مما لا يجوز أن يكون موصوفاً بصفة الحيوان .

وحكى الحريري : عن جعفر بن مبشر أن النفس جوهر ليس هو هذا الجسم وليس بجسم ، لكنه معنى باين الجوهر والجسم .

وقال آخرون : النفس معنى غير الروح والروح غير الحياة ، والحياة عند أبي الهذيل عرض وزعم أنه قد يجوز أن يكون الإنسان في حالة نومه مسلوب النفس والروح دون الحياة ، واستشهد على ذلك بقوله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها) .

وقال جعفر بن حرب : النفس عرض من الأعراض يوجد في هذا الجسم وهو أحد الآلات التي يستعين بها الإنسان على الفعل كالصحة والسلامة . . (هذا ما حكاه الأشعري في مقالته)^(١٠) .

وقال (الباقلاني) : النفس هي النسيم الداخل والخارج بالتنفس والروح عرض وهو الحياة فقط وهو غير النفس .

(١٠) سبق عرض رأى جعفر بن حرب (لا يدري الروح جوهر أو عرض .)

وقال ابن سينا وغيره : ليست النفس جسماً ولا عرضاً وليست في مكان ولا لها طول ولا عرض ولا عمق ولا لون ولا بعض ولا هي في العالم ولا خارجه ولا بجانب له ولا مباينة (قول المشائين وحكاية الأشعرى عن أرسططاليس) وزعموا أن تعلقها بالبدن لا بالحلول فيه ولا بالمجاورة ولا بالمساكنة ولا بالالتصاق ولا بالمقابلة وإنما هو بالتدبير له فقط . . وفي رأى ابن القيم أن هذا أردى المذاهب وأبطلها وأبعدها من الصواب . . ويختتم ابن القيم برأى يقول : « النفس : جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس ، وهو جسم نوراني علوي خفيف حتى متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء ، ويسرى فيها سريان الماء في الورد وسريان الدهن في الزيتون والنار في الفحم ، فدامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقى ذلك الجسم اللطيف مشابكاً لهذه الأعضاء وأفاد هذه الآثار من الحس والحركة الإرادية . أما إذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها وخرجت عن قبول تلك الآثار فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح » . وهذا هو الصواب وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة .

النفس عند عباس محمود العقاد

وقبل أن نترك هذا الموضوع إلى سواه نرى من الأهمية بمكان أن نعرض لمبحث عن النفس عرضه الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه (الإنسان في القرآن) يقول العقاد : تكلم حكماء اليونان عن العقل والروح والنفس بمعانيها التي تنسب إلى الكون وتكلموا عن العقل والروح والنفس التي تنسب إلى

الإنسان . . ورتبوها على حسب صفائها وعلو جوهرها فكان العقل عندهم أولها وأشرفها ، لأن جوهر العقل المطلق هو الله جل شأنه ، والعقل الإلهي هو العقل الفعال Poietikos المتزه عن المادة والهيولى ، وعنه يصدر العقل الإنساني أو العقل المنفعل Pothetikos

ثم تأتى الروح والنفس بعد ذلك فى الصفاء والشرف . . فعندهم أن الروح أقرب إلى عنصر النور وأن النفس أقرب إلى عنصر الهواء والتراب . . ويقول أتباع أفلوطين إن العقل الإلهي فيض منعم ، صدر عنه النفس ، ومنه صدر مادونها من الموجودات على ترتيب شرفها وصفائها . . وهم يذكرون النفس بصيغة المذكر ويتابعهم فى ذلك من كتبوا بالعربية وتابعوهم فى مذاهبهم الصوفية ، والروح أرفع من النفس فى درجات الوجود ودرجات الحياة عند أكثر حكماء اليونان .

فمنهم من ينسب النفس إلى الكائنات العضوية جميعاً ، ومنها كل نبات ينمو ويلد ويوصف ببعض صفات الأحياء . . فعنى النفس عندهم على هذه الصفة مرادف لمعنى (الحركة الحيوية) أو معنى القوة التى تجعل أعضاء الجسم الحى مخالفة للأجسام المادية فى قابلية النمو والتوليد . . ونصيبها من الإرادة أكبر من نصيب الجماد وأصغر من نصيب الروح فإنها لا تملك الانتقال من المكان الذى هى فيه .

فالعقل والروح والنفس قوى حية على هذا الترتيب من الشرف والصفاء . . والإنسان له نصيبه من العقل ولكنه دون العقل الفعال فى جوهره وتنزهه عن المادة والهيولى . . وله روح يعلو به على سائر الموجودات . . ونفس قد يقترب بها من الكائنات التى تنمو وتلد وتزيد على درجات . . إن هذا الاختلاف بين هذه القوى فى مصطلح الحكمة اليونانية وفى لغة الكتاب المبين يقاس من ناحية إلى

كثافة المادة ويقاس من ناحية إلى المثل الأعلى وهو الله .
وقد يقاس الكمال في مصطلح الحكمة اليونانية إلى الجوهر بمقدار ارتفاعه
وإلى المادة أو الهوى بمقدار هبوطه .

ولكن كمال هذه القوى في لغة القرآن مقيس إلى كمال الله جل شأنه فأرفعها
وأشرفها ما كان أقربها إلى الصفات الإلهية ، وأدناها وأخسها ما كان أبعدها من
تلك الصفات .

ومن المقابلة بين هذه القوى كما ذكرت في الكتاب المبين ، فقد تبين أن
الروح هو أقربها إلى الحياة الباقية وأخفها عن المدارك الحسية ، وأنه الجانب
الذى استأثر الله بعلمه واحتجب عن أنبيائه لأنه سر الوجود المطلق . . لا قدرة
للعقل الإنسانى المحدود على الإحاطة به ووعيه إلا بما يناسبه من الإشارة
والتقريب . . (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم
إلا قليلاً) .

أما العقل والنفس في بيان القرآن الكريم فالراجح أن النفس أقربها إلى الطبع
أو القوة الحيوية التى تشمل الإرادة ، كما تشمل الغريزة وتعمل واعية كما تعمل
غير واعية ، وتأتى في مواضعها من الآيات الكثيرة مرادفة للقوة التى يدركها
النوم ، والقوة التى يزهقها القتل والقوة التى تحس النعمة والعذاب وتلهم
الفجور والتقوى وتحاسب على ما تعمل من حسنة وسيئة . . فهى القوة التى تعمل
وتريد . . مهتدية بالعقل أو منقادة لنوازع الطبع والهوى وتوضع لها الموازين
بالقسط يوم القيامة . . (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت في
منامها) .

وإذا ذكر قتل النفس (في القرآن) فإنما هو قتل الإنسان أو الناس على
حسب الخطاب إلى الفرد أو الجماعة . . (من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في

الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً) .

ولكن الإنسان أعم من النفس إذ هو مسئول أن ينهاها :

(وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هي المأوى) . فجملة هذه القوى من النفس والعقل والروح هي (الذات الإنسانية) تدل كل قوة منها على الذات الإنسانية في حالة من حالاتها ، ولا تتعدد (الذات الإنسانية) بأية صورة من صور التعدد ، لأنها ذات نفس أو ذات روح أو ذات عقل ، فإنما هي إنسان واحد في جميع هذه الحالات . . . وهي تعبيرات عنها في جميع اللغات تقضى بها ضرورة الكلام عن كل قوة خفية تدرك أعمالها ولا تدرك مصادرها . . . وعلى هذا النحو تكلم الناس عن ملكات العقل والنفس والروح ، وعما ينسب إليها من وعى باطن ووعى ظاهر ومن ضمير ووجدان وتخيل وحافظة وبديهة وروية إلى غير هذه الأسماء التي تتعدد للتمييز بين الأعمال وإن لم تتعدد في مصدرها المعلوم أو المجهول .

وقد ذكرت النفس في القرآن بجميع قواها التي يدرسها اليوم العلماء المتخصصون لهذه الدراسات في موضوعاتها الحديثة .

- فقرة الدوافع الغريزية تقابل النفس (الأمانة بالسوء) (وما أبرئ نفسي إن النفس لأمانة بالسوء) .

- وقوة النفس الواعية تقابل النفس الملهمة (ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها) .

- وقوة الضمير تقابل النفس اللوامة وهي النفس التي يقع منها الحساب كما يقع عليها وجاء ذكرها من أجل ذلك مقروناً بيوم القيامة (لأقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة) . . ثم ذكرت موصوفة بالإبصار والعلم بمواقع الأعدار (بل الإنسان على نفسه بصيرة . ولو ألقى معاذيره) .

- وقوة الإيمان والثقة بالغيب تقابل النفس المطمئنة (يأتيها النفس المطمئنة).

ارجعى إلى ربك راضية مرضية .

وفي كل موضع من هذه المواضع تذكر النفس الإنسانية بعامة هذه القوى . فتجمعها خاصة واحدة هي خاصة الإنسان في القرآن وهي خاصة الكائن المكلف المسئول . (كل نفس بما كسبت رهينة) . (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً) (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً) . (علمت نفس ما قدمت وأخرت) (وإذا النفوس زوجت) (علمت نفس ما أحضرت) .

فحساب النفس من حساب الإنسان ، ولكن الذات الإنسانية أعم من النفس ، ومن العقل ومن الروح حين تذكر كل منها على حدة . . فإن الإنسان يحاسب نفسه لينهاها عن هواها . . ولكن الروح من أمر الخالق الذي لا يعلم الإنسان . عنه إلا ما علمه الله ويتوسط العقل بين القوتين فهو وازع الغريزة في الجسد ومستلهم الهداية في الروح .

ولعلنا نفقه من هدى القرآن ترتيب هذه القوى في الذات الإنسانية ، وعمل كل منها في القيام بالتكليف وتمييز الإنسان بمنزلة الكائن المسئول . فالإنسان يعلو على نفسه بعقله ويعلو على عقله بروحه فيتصل من جانب النفس بقوى الغرائز الحيوانية ودوافع الحياة الجسدية ، ويتصل من جانب الروح بعالم البقاء وسر الوجود الدائم وعلمه عند الله . . وحق العقل أن يدرك ما وسعه من جانبه المحدود ، ولكنه لا يدرك الحقيقة كلها من جانبها المطلق إلا بإيمان وإلهام .

هل النفس واحدة . . أو ثلاث أو أكثر؟ (١١)

وقع في كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاث أنفس . . نفس مطمئنة ، ونفس لوامة ، ونفس أمارة . وأن منهم من تغلب عليه هذه ، ومنهم من تغلب عليه الأخرى ، ويحتجون على ذلك بقوله تعالى :

- (يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ) .

(لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة) .

- (إن النفس لأمارة بالسوء) .

(١) النفس المطمئنة

وهي مطمئنة بذكر الله (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) وحقيقة الطمأنينة التي تصير بها النفس مطمئنة أن تطمئن في باب معرفة أسمائه وصفاته ونعوت كماله إلى خبره الذي أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله ، فإذا عرف اطمأنت نفسه بالإيمان حتى لو خالفه جميع أهل الأرض . . ثم لا يزال يقوى كلما سمع بآية متضمنة لصفة من صفات ربه وهذا أمر لانهاية له . فهذه الطمأنينة أصل أصول الإيمان . . ثم يطمئن إلى خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ وما بعدها من أحوال القيامة حتى كأنه يشاهد ذلك كله عياناً . وهذا حقيقة اليقين الذي وصف به سبحانه وتعالى أهل الإيمان فقال : (وبالأخرة هم يوقنون) .

(١١) التحقيق أنها نفس واحدة ولكن لها صفات . فتسمى باعتبار كل صفة باسم

- والطمأنينة إلى صفات الله وأسمائه نوعان :
- طمأنينة إلى الإيمان بها (أسماء الله وصفاته) وإثباتها واعتقادها .
- وطمأنينة إلى ماتقتضيه وتوجهه من آثار العبودية .

فمن توفرت له الطمأنينة لا يئس على مافاتة ولا يفرح بما آتاه فهو مطمئن إلى قوله تعالى : (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) .. كذا الاطمئنان إلى قوله سبحانه : (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه) .

- أما طمأنينة الإحسان فهي الطمأنينة إلى أمره امثالاً وإخلاصاً ونصحاً ، فلا يقدم على أمره إرادة ولا هوى ولا تقليداً ولا يساكن شبهة ولا شهوة ، وهذا هو صريح الإيمان كما قال الرسول ﷺ : وننبه هنا إلى أن الله سبحانه وتعالى جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كمالاً إن لم يحصل عليه فهو في قلق واضطراب وانزعاج بسبب فقد كماله .. فكمال العين بالإبصار .. وكمال الأذن بالسمع .. وكمال اللسان بالنطق .. وكمال القلب معرفته سبحانه وإرادته ومحبته والإجابة إليه والإقبال عليه والشوق له والأنس به ، فإذا عدم القلب ذلك كان أشد عذاباً واضطراباً من العين التي فقدت النور واللسان الذي فقد قوة الكلام والذوق .. وأقوال المفسرين في الطمأنينة ترجع إلى ذلك . فحقيقة الأمر أنه لا طمأنينة بدون التحقق بإياك نعبد وإياك نستعين .. قال ابن عباس رضي الله عنهما المطمئنة : المصدقة . وقال قتادة : هو المؤمن اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله .. وقال الحسن : المصدقة بما قال الله تعالى . وقال مجاهد : هي النفس التي أيقنت بأن الله ربها المسلمة لأمره فيما هو فاعل بها . فإذا اطمأنت من الشك إلى اليقين ومن الجهل إلى العلم ومن الغفلة إلى الذكر .. ومن الخيانة إلى النوبة

ومن الرياء إلى الإخلاص ومن الكذب إلى الصدق ومن العجز إلى الكيس ومن صولة العجب إلى ذلك الإخبات ومن التيه إلى التواضع ومن الفتور إلى العمل ، فقد باشرت روح الطمأنينة وأصل ذلك كله ومنشؤه من اليقظة فهي أول مفاتيح الخير والابتعاد عن الغفلة من الاستعداد للقاء ربه والتزود لمعاده .

(ب) النفس الأمارة

وأما النفس الأمارة فهي المذمومة فإنها التي تأمر بكل سوء وهذا من طبيعتها إلا ما وفقها الله وثبتها وأعانها فماتخلص أحد من شر نفسه إلا بتوفيق الله له (وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم) . وقال تعالى : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبداً) . وقال تعالى للرسول ﷺ : (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً) وكان النبي ﷺ يعلمهم خطبة الحاجة فيقول : « الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا .. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له » .

(ج) النفس اللوامة

قالت طائفة : هي التي لا تثبت على حال واحدة .. أخذوا اللفظة من التلوم وهو التردد .. فهي كثيرة القلب والتلون فتذكر وتغفل وتقبل وتعرض .. وتلطف وتكثف وتنيب وتجفو .. وتحب وتبغض .. وتفرح وتحزن .. وترضى وتغضب .. وتطيع وتعصى وتتقى وتفجر .. إلى أضعاف أضعاف ذلك من حالاتها ..

قالت طائفة : اللفظة مأخوذة من اللوم ثم اختلفوا فقالت فرقة هي نفس المؤمن وهذا من صفاتها المجردة .

قال الحسن البصري : إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائماً . .

قال غيره : هي نفس المؤمن توقعه في الذنب ثم تلومه عليه فهذا اللوم من الإيمان بخلاف الشقي فإنه لا يلوم نفسه على ذنب . . بل يلومها وتلومه على فواته . .

قالت طائفة : بل اللوم للنوعين فإن كل أحد يلوم نفسه برأ كان أو فاجراً . . فالسعيد يلومها على ارتكاب معصية الله وترك طاعته والشقي لا يلومها إلا على فوات حظها أو هواها .

وقالت طائفة : هذا اللوم يوم القيامة فإن كل أحد يلوم نفسه إن كان مسيئاً على إساءته وإن كان محسناً على تقصيره .
وهذه الأقوال كلها حق ولا تنافي بينها فإن النفس موصوفة بهذا كله وباعتباره سميت (لومة) .
لكن اللومة نوعان :

لومة ملومة : وهي النفس الجاهلة الظالمة التي يلومها الله وملائكته .

لومة غير ملومة : وهي التي لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره في طاعة الله

مع بذله جهده فهذه غير ملومة .

وقد امتحن الله الإنسان بهاتين النفسين (اللومة والأمرة) كما أكرمه

بالمطمئنة فهي نفس واحدة تكون أمرارة ، ثم لومة ، ثم مطمئنة ، وهي غاية

كمالها وصلاحتها . . والملك قرين المطمئنة والشيطان قرين الأمرارة . . وقد

انتصبت الأمرارة في مقابلة المطمئنة لهزيمتها إلا من رحم ربي .

أوصاف النفس وتقسيمها باعتبار المقامات

ذكرنا كيف تختلف النفس باختلاف أوصافها (١٢) :

١ - فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضته الشهوات ، سميت بالنفس المطمئنة وهي التي قال الله تعالى فيها :
(يأتيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية . فادخلى في عبادى وادخلى جنتى) .

٢ - النفس التي لم تسكن فيها قوة الغضب والشهوة ، وهذه لا يتصور رجوعها إلى الله فإنها مبعدة عنه ، وهي من حزب الشيطان . وهي النفس الأمارة بالسوء . قال الله تعالى إخباراً عن امرأة العزيز :
(وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء) .

٣ - النفس التي لم يتم سكونها ، ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعتزلة عليها فهي تلوم صاحبها عند تقصيره في طاعة ربه وعبادة مولاه . قال تعالى :

(لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة) .
ولكن البعض ذهب إلى تقسيمها باعتبار مقاماتها إلى سبعة أقسام :
١ - مقام ظلمات الأغيار : وتسمى النفس فيه النفس الأمارة .
٢ - مقام الأنوار : وتسمى النفس فيه النفس اللوامة .

(١٢) النفس أمراضها وعلاجها في الشريعة الإسلامية الشيخ محمد الفقى مكتبة صبيح ١٣٩٠ هـ

- ٣ - مقام الأسرار : وتسمى النفس فيه النفس الملهمة .
- ٤ - مقام الكمال : وتسمى النفس فيه النفس المطمئنة .
- ٥ - مقام الوصال : وتسمى النفس فيه النفس الراضية .
- ٦ - مقام تجليات الأفعال : وتسمى النفس فيه النفس المرضية .
- ٧ - مقام تجليات الصفات والأسماء : وتسمى النفس فيه النفس الكاملة .

* * *